الطبع الحيواني

بقلم كامل كيلاني

---

١ — الضعيف والقوي

إذا انتقلنا مع شيخنا «أبي العلاء» من الطبع الانساني الى الطبع الحيواني راعنا منهُ أنهُ لا يكاد يحمد للحيوان صفة واحدة إلا أعقبها بالذم على غيرها

فهو في جمهور منظومه ومنثوره، لا ينفأ ينعتهُ بالجور والإفساد، ويصفهُ بالبغي والاستبداد، ويعلن سخطه واستنكاره لما يشهده ويراه من فنون بغيه وأذاه

وعنده أن الحيوان كالإنسان — في كل صقع ومصر، وفي أي عهد وعصر — ظالم معتد أثيم، يفتك قويه بضعيفه، ويستبد قادره بعاجزه، لا فرق في ذلك بين سباع الطير وبغاثها، وأسد الفلاة ومهاتها، وهو يرى ما يراه أستاذه المتنبي: أن البغي أصيل في كل نفس، برة كانت أو فاجرة:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفـــة فلعـــلة لا يظـــلم

٢ — غريزة الظلم

والحمامة — على ضعفها — ظالمة باغية، وهي غادرة برّة كانت أو فاجرة:

والشر في حيوان الأرض مفـــترق والإنس كالوحش من ضار ومسـتـقـل

وهي — فيما يرى شاعرنا — لا تتورّع لحظة واحدة عن الفتك والأذى والعدوان متى هُيئت لها من أسباب الشر ووسائله ما يحقق آرابها، ويشبع لها نزوة من نزواتها الباغية،

ويكفل إرواء نزعاتها الظالمة الطاغية . فهي تظلم — ما وسعتها طاقتها الضعيفة — كما يظلم الأسد جهده طبيعته الباطشة الغلابة ، فهو يقول :

كادت تساوى نفوس الناس كلهم في الشر ما بين منبوز ونباز [1]
ظلم الحمامة في الدنيا ـ وإن حسبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

والخشف — وهو ولد الظبية أول ما يولد — يحمل، على عجزه وضعفه، نفساً شريرة باغية ، لا تكاد تختلف عن نفس الأسد طبيعة وعنصراً ، ومعدناً وجوهراً، وكلاهما جدير أن يتقى شره ، ويحذر ضره .

وإليك النص :

«خف من خشف يئم [2]، كما تخاف من هزبر (أسد) ضغم (عض) ، فكل الأنفس مواطن الشرور ، وعنده أن الكل في الفعلة سواء :

وأم شبلين في غيل ومأسدة كأم خشفين في شث وطباق [3]

على أنه يوصيك أن تصنع المعروف دائماً في كل من تمكنك الفرصة من اسداء الجميل اليه سواء في ذلك الانسان والحيوان ، فهو يقول :

ترخ الأجر في وحش وإنس ففي كل النفوس مرام أجر

وكأنما يشير بهذا البيت — في لباقة — الى مأثور الحديث :

ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير او انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة

٣ — طبيعة الخوف

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه — فيما نبه اليه من طبائع الحيوان وغرائزه — ما جبل عليه من طبيعة الخوف من القوي. فهو اذا قرر لنا في بعض فصوله ما تأصل في طبيعة الانسان من الظلم ، فقال : «طبع الناشئ على الحلم ، والانسان على الظلم » — لم يفته — في فصل آخر — أن يصور ما طبع عليه الحيوان من غريزة الخوف من الفاتك الباطش : فيقول :

« المخلوق كما خلق

طبع الهادل (الحمام)

(١) جزه : زره ؛ ونبزه بكذا : لقبه به ؛ وهو شائع في الالقاب المستهجنة (٢) يئمت الظبية : صاحت الى ولدها أرخم ما يكون من صوتها ؛ ويئم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه به (٣) يعني أن الظباء ـ في عرينها ـ كالظبية التي ترعى من النبات : الشث والطباق

عن الخوف من الاجادل (الصقور).
فالحائم وإن سكن الاقفاص
وعلمن أن لا مناص (أن لا خلاص)
يُحسن النقر
ويحشين مخالب المقر »
او يقول:
« أرى حيوانَ الارض يرهبُ حتفهُ ويفزعُهُ رعد ويُطمعهُ برق »

٤ — براعة النحلة

وله، الى ذلك فنون من المقابلات بين الانسان والحيوان، لا يتسع هذا المقام لتفصيلها، فلنقتصر على بعض ما أبدعهُ في المقابلة بين الانسان والنحلة، قال:
«والجارسة (النحلة) تبني من الشمع أحسن مسكنٍ وتودعهُ طيّب الأريْ (العسل).
وزمازمُها تسبيحٌ لملهم الحكمة من أراد
فما فضيلة العشَم (الحاذق الكف بالصنعة)
اذا اتخذ قيضاً (درعاً) لحرب
كسارد الحُبُب (طرائق الماء)
أو بُرْدِ الحُباب (جلد الحية)
وما أروع قوله في تشبيه النابغ الموهوب بالنحلة: فهو بما أوتيه من مزايا نادرة، وقدرة باهرة، يردُّ الوحشيَّ من الكلام أنيساً، كما يرد النحل ما يجنيه من نوْر الازهار — وهو مرُّ المذاق — عسلاً سائغاً للشاربين، فهو يقول:

« ردّت لطائفه وحدّةُ ذهنه وحش اللغات أوانساً بخطابه
والنحل يجني المرَّ من نوْر الرُّبى فيعود شهداً في طريق رُضابه »

٥ — رزق الحيوان

وهو — على هذا — دائم العناية، موصولُ التفكير في الحيوان والانسان جميعاً، وله في ذلك فنون من روائع الصور، تضيق بتفصيلها مُطوّلاتُ الاسفار بَلْهَ موجزات الفصول.
ويُحسبنا في هذه الوجازة أن نشير الى بعض ألواحه الفنية الرائعة التي تصوّر ناحية من نواحي تفكيره العميق، في عدل العناية الالهية بكل حي من الاحياء، وكيف كفلت

الرزق لجميع المخلوقات . فهو يعرض — في هذا اللوح الفائق — صورةً رائعة التفصيل تمثل بعض المصادفات التي تمدُّها الأقدار لتهيئة الرزق لمن قسم لهم على غير انتظار

فهذا رجل يعتزم السفر فيعدُّ لرحيل عدته، ويدفعه الشرهُ الى التأنق في اختيار طيّب الزاد ، والافتنان في تهيئة لذيذ الطعام فاذا تمّ له مراده ، وأعدّ للرحلة زاده ، وضع الخبز في صفرة من الخوص ، الى جانب جدْي سمين طري اللحم لذيذ الطعم يكاد يتفطر إهابه لدسامته . ولم ينس المسافر نصيبه من الحلاوة ، فأعدّ لنفسه ما يكفي الجماعة — من لذيذ الفالوذج ، ثم صبر الى الصباح ، فلما أشرق النهار بدأ رحلته ، وما زال يواصل السفر طول يومه ، حتى إذا آذن النهار بالزوال ، نزل على ماء غير ، جلبه السيل الغزير ، الى عين أو غدير ، فطعم من شهي الزاد حاجته ، وأكل من لذيذ الحلاوة كفايته . وأتاح المسافر بهذه الرحلة فرصة سعيدة ، ومأدُبة فريدة ، لأممٍ من النمل ، جائمات ، جئنَ اليه مسرعات ، وأقبلنَ على مشاركته في زاده متسللات ، وقد بدتْ جسومهنّ المحزوزات ، كأنّ ظهورهنّ من الحزّ مقطومات .

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه الى ما يختصُّ به الضعيف من قدرة على الأذى ، وإلحاق الضرّ بالقوي ، فيقرر لنا أن هذه النملَ الضعيفات ، لسنَ عن الشرّ بعاجزات ، وأنهن — على تجرُّدهنّ من السيوف والرّماح ، وأدوات الحرب والكفاح — قادرات على ايذاء الكُماة المدجّجين بالسلاح .

ثم يمثّل لنا شاعرنا كيف أتاح المسافر لضيوفه النازلات بساحته ، ألواناً شهيّةً من فُتات مائدته .

ويصوّر لنا كيف طوّح صاحبنا ما زاد على كفايته من العظام ، بين كثبان الرمال والآكام . فهيّأ بذلك رزقاً لطائفة من الحيوان ، وجدت فيما يحتويه العظم من مخٍّ طريّ ، زاداً جدّ شهيّ .

فأقبل عليه بعض الجياع ، من الغربان البُقْع أو الضباع

وهنا يبدع فيلسوف المعرّة وشاعرها صورة بارعة لتلك الغربان والضباع ، ويصف كيف يتبدّين في بديع ثيابهنّ ، فيخيل لمن يراهنّ ، أنهنّ قد تلفّعنَ وتدرّعنَ ببديع من الثياب والأبراد ، مخططة بالبياض والسواد .

واليك النص العلائي :

« أمرُ الأرزاقِ أَدْوالٌ (عجائب) .

عزم ظاعنٌ على الشُّخوص (السفر)

فاتخذ سُفرةً[١] (سفرة) من خوص
فيها أبيض حُرٌّ (خبز)
وعمروسٌ[٢] (جدْي)، أرضعته الخَروس[٣] (المرضع القليلة اللبن) ورعديد[٤]
(فالوذج)، يكتفي به المديد
فصار الانسان لما أبصر
فلما تمَّ يومه وأقصر[٥] (صار في آخر النهار)
نزل على عين سجراء (يضرب ماؤها الى الحمرة، لقرب عهده بالسيل)،
فأصاب من الطعام
والله آثر (خصّ) الانسي بطيّب الأكيل (المأكول)
فاجتمع اليه سودٌ جزلٌ[٦] (نمل)
يؤذين ذوي الأسلحة، ومن عزلٌ
فأصبْنَ ما قُسِمَ لهنَّ، والحثالة النزل (يعني أن ما سقط من المائدة كان زادهنّ،
والنزل هو: الطعام الذي يصلح للنازل، اذا نزل بك)
ورمى بالانقاء (الكثبان من الرمل)
أعظماً ذوات أنقاء[٧] (أمخاخ)
فابتدرهنَّ بُقْعٌ: (جمع أبقع، وهو الغراب، أو: الضَّبُع، لونه البقع) كأنما
عليهنَّ أنمٌ من البرد أو السِّباج[٨]
ومن لغاته الطريفة في هذا الباب قوله:
يرى الضب الراكب
فيقول لحِسْلِه (ولده):
اتق الخارش (صيّادَ الضبّ).
فيمر الراكب مجلاً،

(١) السُّفرة: السفرة تتخذ من الخوص (٢) العمروس: الجدي أو الخروف، وأكثر ما يستعمل في الجدي، ويقال: ان عبد الملك بن مروان قال لعدي بن حاتم: «ما تعدون أفضل الطعام عندكم؟» قال: العنوق (الاناث من المعزى، واحدها عناق) قال: أما نحن فلا نعدل بالعمارس» (٣) الخروس: التي تلد بكرها، فيكون لبنها قليلاً، فتعمل لها الخرسة، وهي طعام تطعمه النفساء ليدر لبنها (٤) الرعديد، هنا: الفالوذ، وفي غير هذا الموضع: الجبان (٥) أقصر: صار في قصر النهار، وهو: آخره (٦) يقال للنملة: جزلاء، لأجل الحز الذي في ظهرها، ويقال: بعير أجزل اذا خرجت من فقار ظهره فقرة (٧) أنقاء مصدر أنقى العظم، إذا صار فيه نقي، وهو: المخ، واذا فتحت الهمزة، فهو جمع نقي (٨) الأنم: جمع لثاع وهو ما يتقنع به، والبرد: جمع بردة، والسباج: جمع سبيجة وهو ثوب فيه سواد وبياض)

ومعه جراب عجوة ، فيلقيه ،
ويعجله السير عن أخذه
فيكون في ذلك الجراب معيشة للنحل

٦— في طلب الرزق

ومن بدائع الصور التي رسمتها ريشة هذا المبدع قوله أيضاً يمثل ما يعانيه الإنسان في طلب الرزق :

ويغدو الحاطب نشيطاً ، وفي يده المخلب (المنجل) ، وعلى عاتقه المسد
فيكون أكيل أسامة (مأكول الأسد) مع الشروق .

وقوله يمثل ما تعانيه القطاة من ضروب الأخطار في سبيل التماس الرزق :

تنزل القطاة الى شرك الوليد
وهي فرحى بما لاح لها من الرزق
فيؤول أمرها معهُ إلى أحد ثلاثة أشياء :
سحط مزعف (ذبح سريع) أو سجن محرج أو عذاب مُبَرِّح

وقوله : وابك على ثائر رماه فتى لاهٍ فأوهى بفهره [١] الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً فقصّ عند الشروق أو نتفا
كأنه في الحياة ما فرع الغصـ ـن [٢] فغنى عليه أو هتفا

وقوله يصف النحلة :

وتقدم الجارسة (النحلة) على مارّ الطريق بالسب ، وحتفها فيه — وقوله :
«وينام الوليد عند وجار الضبة المكنون (وهي : التي فيها بيضها)
ومعهُ تمرات حشفات (من أردإ التمر) [٣]
فتخرج لتسرقن منهُ فيصيدها بالسعي الهين

ملاحظة : هذا المقال من « مقدمة رسالة الهناء » وهي تحت الطبع ، وأما الصورة المنشورة فمن ريشة جبران خليل جبران.

---

(١) الفهر: الحجر ملء الكف (٢) فرع الغصن : علاه (٣) وقيل : التمر الفاسد